

المرأة العربية المعاصرة

الانتماء الحضاري والبعد السيكولوجي

عز الدين البوشنيخار

الطبعة الاولى
جمادى الثانية 1404 - مارس 1984

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

www.bookall.net
منتديات سور الأنيكية

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة مكاتب مكناس

اهداء

- الى قلوبين كبيرين تربيت في حضنهما ، فأشبعاني عطا
وحبا ورعاية وتقديرا : أمي وأبي .
- والى كل قلب كبير ينفّث لمن ذاقوا مرارة الحياة ،
ويضمهم اليه ، ويغمرهم بما لديه من الحنان الدافئ والعاطفة
الصادقة والعمل الكريم .
- والى كل قلب كبير يضمد الجروح ، ويمسح الدموع ،
ويساعم في رفع الكرب ودفع الضرر ببراءة وصدق نية .
- والى كل قلب كبير يضحى بالغالي والتفيس من أجل من
أشرفوا على الهلاك ماداموا ينتمون لادم عليه السلام ومادامت
الروح فيهم تدفعهم الى الامام .

مقدمة

في كل يوم كنت ألحظ الآلام من حولي تتفجر ،
في كل يوم كنت أرى شظايا القلوب تتطاير ،
في كل يوم كانت العجائن البشرية تتراكم ، بعضها فوق بعض :
النفوس منها جريحة ،
والقلوب منها كسيرة ،
والأعين منها دامعة ،
والروح مهیضة الجناح .

هذه الصورة كنت أحملها ، وكانت تمارس على نفسي وفكري
وشعوري ضغطا قويا يعزى اليه انبثاق فكرة هذا البحث :
« المرأة العربية المعاصرة : الانتزاع الحضاري والأبعد السيكولوجي »
التي أعلنت * الجمعية المغربية للمستقبلية ** عن تنظيم
مباراة للشباب المغربي الناشئ - الذي لا يزيد سنه عن العشرين -
وكافلت النتيجة أن نال هذا البحث الجائزة التشجيعية .. وتواردت
عليّ رسائل ، طلب مني أصحابها إمدادهم بنسخ منه . ومن ثم

* كان ذلك سنة 1982

** وهي جمعية تضم رجالات الفكر في شتى فروعها ، وتولي
اهتماماتها بالدراسات المستقبلية في المغرب .

عزمت على طبعه ونشره حتى أستطيع تغطية جميع الرغبات ، وقد
لجأت طبعا الى ادخال تعديلات عليه من شأنها أن تجعله في مستوى
الطبع والنشر .

هذا البحث يحاول تسليط الضوء على النظرية الفرويدية
في جانب أخذها موضوع المرأة ، ينقدها من الداخل ، ويمحصها
بوضعها على محك الواقع الاجتماعي .

ثم يتطرق الى مقارنة وضعية المرأة الغربية المعاصرة
بتلك التي عليها المرأة العربية المعاصرة ليصل الى المثبطات
التي تتعرض لها هذه الأخيرة من المجتمع / الرجل ، ومن بعض
الاطروحات التي تحاول تكريس الازمة بشكل أعمق .

وفي الأخير يقدم اقتراحا يمكن أن يخرج المرأة المعاصرة من
أزمته ، هذا المقترح لا يعدو كونه أرضية صالحة للانطلاق .

والبحث يخاطب بالاساس المرأة العربية المعاصرة ، ولفظ
المعاصرة - بصيغة اسم الفاعل - يتجاوز المفهوم الزماني ليحتوي
مفهوم مسايرة الركب الثقافي الجديد .

والعنوان يشير الى أن حمل تصور ما لحضارة ما ، يؤدي
بالطبع الى اقتفاء اثارها على النفس والفكر والسلوك . او بمعنى
آخر ان البعد السيكولوجي هو امتداد طبيعي لكل انتماء حضاري .

وفي هذا الصدد لابد من الإشارة الى أن العناوين الصغرى التي
تتخلل البحث انما وضعت لضرورة منهجية - تسهيل القراءة -
ولا تعني بحال تقسيم الموضوع الى فقرات متقطعة ، فهو من

هذا الجانب متماسك .

وتجدر الإشارة الى أنني حافظت على نقل عدد من النصوص بحرفيتها وبما يحمل بعضها من أخطاء لغوية أكلها الى الحدس اللغوي للقارئ . وقد كنت أهدف من سرد تلك النصوص تقريب القارئ الى جوهر الموضوع بكل ما ينطرح حوله من مفاهيم وتصورات . كما لجأت الى ضبط المصادر والمراجع التي اعتمدتها البحث في الهوامش ضبطا مفصلا مرة واحدة (ذكر العنوان والمؤلف أو المترجم والطبعة والمطبعة والسنة) وتجنببت تكرار هذه التفاصيل مكتفيا بالإشارة الى عنوان المرجع أو المصدر .

وفي الأخير لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر لكل من تقدم الي بنصح أو توجيه أو نقد .

عز الدين البوشيخي

مدخل

ان المتأمل لوضعية المرأة العربية المعاصرة يدرك أنها لا تعيش وفق معطياتها الطبيعية على كل الاصعدة والمستويات . ويدرك أنها تعيش أزمة في نفسها ، وفي فكرها ، وفي تصورها ، وفي سلوكها ، وفي واقعها . ويدرك كذلك أن شروطا موضوعية أخرى ساهمت في تأزيم وضعيتها بجانب مسؤوليتها الذاتية .

هذه الشروط الموضوعية والذاتية تفاعلت لتخلق في الأخير عجائن بشرية نسائية متراكمة .

وفي محاولة لكشف الآليات التي تكمن وراء تحريك أزمة المرأة - المرأة بمفهومها الواسع كجنس - ، ولوضع اليد على الاطار النظري الذي تتحرك داخله هذه الازمة ، جاء هذا البحث وهو يفترض أن الاطار النظري الذي يطوق أزمة المرأة العربية المعاصرة يقارب الاطار النظري الذي يطوق أزمة المرأة الغربية دون اهمال حيثيات كل واقع على حدة .

وحينما نأخذ النظرية الفرويدية ارضية لذلك الفرض لا يعني ممارسة أي شكل من أشكال التجوز المنهجي أو القفز المعرفي أو الاسقاط النظري . ويبدو أن أي ابهام يزول اذا اعتبرنا أن المرأة الغربية المعاصرة التي تعيش وفق معطيات النظرية

الفرويدية هي النموذج المحتذى عند المرأة العربية المعاصرة ، وهو اعتبار يجد سنده في الواقع المحسوس . وبفعل انتماء هذه الاخيرة الحضاري الى الغرب ، ورثت عن نموذجها المحتذى أزمة في فكرها وتصورها وسيكولوجيتها وسلوكها .

ومن ثم فان أي حديث عن واقع هذه الازمة يستلزم تفكيكا لعناصر البنية النظرية التي تقوم عليها ، ومن ثم كذلك تستمد مشروعية الحديث عن النظرية الفرويدية في جانب أخذها موضوع المرأة ومناقشة الاسس التي انبنت عليها .

قد أحدثت المنظومة الفرويدية انقلابا جذريا شمل المفاهيم والتصورات والمعتقدات ، واستطاعت أن تقتحم جل ميادين المعرفة الانسانية ، ذلك أن « تغفل أفكار التحليل النفسي الى الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ ، والاثنوغرافيا والفن والحقوق يدل على أن التصورات الفرويدية النظرية تندمج في الحياة الروحية للمجتمع البورجوازي المعاصر ... فالكتب الفرويدية الادبية والعلمية تحظى اليوم بطلب كبير وشعبية كبيرة ... » (1) الى درجة أن القراء - كما يقول R. Lapierre - « قد أصبحوا مرضى نتيجة لقراءاتهم المستمرة الكثير من روايات وقصص التحليل النفسي » (2). ومن ثم أصبحت النظرية الفرويدية ثقافة ، واتخذت مداها

1 - مذهب التحليل النفسي وفلسفة الفرويدية الجديدة ص 17
تأليف ناليري ليبين) ، دار الفارابي 1981 .

2 - نفس المرجع السابق ص 17 .

الخطير في الحياة الانسانية ، حيث ان الانسان المعاصر أصبح محاصرا من طرف الثقافة بأوسع معانيها . هذه الثقافة التي يعزى اليها النصيب الأكبر في تحديد نفسية الانسان وتوجيهه سلوكيا وأخلاقيا .

ان ما لهذه النظرية من تأثير في حياة الناس العامة والخاصة يجعلها تصطبغ بنوع من الخطورة ، هذه الخطورة التي قد تصل الى ما يقوله R. Lapiere : « واذا ما استمرت المؤسسات العدلية في المستقبل بالاسترشاد بالأخلاق الفرويدية فان أولئك الذين لا يزالون يحترمون القانون ويتمسكون بالنظام الى حد ما يمكن ان يتحولوا - حسب رأي بعض الاختصاصيين - الى مجرمين لا تطلبهم يد العدالة نتيجة للاعتراف بانهم شاذون من الناحية النفسية ، وبالتالي يغدو المجتمع القائم مريضا حقا » (3).

وحيثما يصبح لنظرية ما مثل هذا الوزن ، وحيثما تصل انعكاساتها الى الواقع الاجتماعي فانه يصبح ملزما البحث في مدى علمية هذه النظرية .

ولعل الوضعية المتازمة التي تعيش عليها المرأة الغربية تستند في جانبها النظري الى المنظومة الفرويدية . ولعله كذلك لم تكن المرأة بوجه خاص اقل تأثرا من غيرها ، بل ربما كانت هي الضحية الأولى . ان تلك الاشارات العارضة لا يتم لمسها عن قرب ، ولا

يمكن أن نتخذ صيغتها المشروعة إلا من خلال كشف البنية
الدلالية في علاقتها مع الآلية المنهجية الكامنة في شبكة الطرح
الفرويدي لتحديد القيمة العلمية التي يقوم عليها النص .
وتجدر الإشارة إلى أنه سيتم الاعتماد في مناقشة النظرية
الفرويدية في جانب أخذها موضوع الهراء على المؤلف المعتمد في
التحليل النفسي «تفسير الأحلام» - هذا الكتاب الذي عرف انتشارا
واسعا صحبته ضجة اعلامية كبرى بعدما ظن فرويد نفسه أن كتابه
هذا لم يبق له إلا «أن يندثر في صمت مطبق» (4) نتيجة للاستقبال
السيء الذي لاقاه عند صدوره من معاصري فرويد من العلماء - (5)
وذلك لاعتبارات ، منها :

أولا : أن صاحبه معجب به إلى حد قوله : «أنه حتى فيما
أرى اليوم يحوي أثمن الكشوف التي شاء حسن الطالع أن تكون
من نصيبي ، تمثل هذا الحدس لا يأتي العمر مرتين» (6) .
ثانيا : أن هذا المؤلف باجماع الباحثين في التحليل النفسي

4 - تفسير الأحلام ص 7 ، تأليف سيجموند فرويد ،
ترجمة مصطفى صفوان ، راجعه مصطفى زيور ،
دار المعارف بمصر .

5 - نفس المرجع السابق ص 11 ، حيث يعلق البروفسور
ليمان الاستاذ بجامعة برلين قائلا : «لقد انتصرت (في هذا
الكتاب) الأفكار الخيالية للفنان على الباحث العلمي» .

6 - نفس المرجع السابق ص 7 .

خير ما كتب به فرويد وأكثر أصالة (7) .
ثالثاً : أنه يشتمل على الأوليات التي اعتمدتها النظرية
الفرويدية . هذا، وسيتم الاستناد على بعض مقولات فرويد الأخرى
مع عدم إهمال الانتقادات الموجهة إليها وإلى شخص فرويد .
كما ستتم هذه المعالجة من خلال إثبات النصوص واستنتاجها
أملاً في تقريب الإطار النقدي - الذي ستوضع داخله هذه النظرية -
إلى القارئ الكريم .

7 : نفس المرجع السابق ص 7

نقد النظرية الفرويدية

أستهل بالقاعدة الأساسية التي بنى عليها فرويد نظريته حول المرأة . يقول في «تفسير الاحلام» : «وأنا هنا (8) أشير الى اسطورة الملك أوديب والى مسرحية سوفوكليس التي تحمل اسمه : ولد أوديب من لايوس ملك طيبة ومن زوجه يوكاستا ، وألقى به الى المراة وهو بعد رضيع ، لان نبوءة أعلنت لايوس - وابنه مازال بالرحم - أن ابنه هذا سوف يكون قاتله . الا أن منقذا أنقذه ، وشب الطفل وليا للعهد في بلاط أجنبي الى أن خامره الشك في أصله ، فراح بدوره يستفسر العرافة فأنذرته آياه والاقامة في وطنه . فقد قضي عليه أن يقتل أباه وأن يأهل أمه . وبينما هو نائم على وجهه في طريق يبعده عما يظن أنه وطنه ، اذا هو يلتقي بالملك لايوس فيصرعه في قتال نشب على غرة . وأقبل بعدها الى طيبة ، وهناك حل لغز أبي الهول (9) الذي كان يعترض

— 8 : في معرض حديثه عن الاحلام الطفلية النمطية .

— 9 : لغز أبي الهول في أشهر صيغته هو الاتي : من ذا الذي اذا طلع النهار سار على أربع ، فان انتصف فعلى اثنتين ، فان ضرب الى المغيب فعلى ثلاث ، والجواب هو الانسان الذي يستند الى العصا في شيخوخته ، تفسير الاحلام ص 277.

الطريق الى المدينة . فنصبه الطيبون ملكا عليهم عرفانا منهم
بجهيل صنعه ، وأهدوا اليه يد يوكاستا . وظل أوديب يحكم
دهرا امنا معززا . وأعقبت له أمه المجهولة منه ولدين وابنتين ،
الى ان نزل وباء فكان سببا في ان يذهب الطيبون في سؤال الاعراف
من جديد . وهنا تبدأ مأساة سوفوكليس (10) : يعود الربسل
بهذا البلاغ : ينقطع الوباء اذا ارتحل قاتل لايوس عن الديار ،

1 - : علق الدكتور فاروق أحمد المسوقي على هذه المسرحية
في مقال نشره بمجلة المسلم المعاصر قائلا : «لاد اختار
سوفوكليس اليوناني أبشع الجرائم التي يمكن ان ترتكب
على ظهر الارض : وهما قتل الوالد ونكاح الام ، وحاول أن
يثبت وقوعها منه رغما عنه ، ليقول ما ذنب أوديب فيما فعل ؟
ألم يكن مكتوبا ومقدرا عليه من قبل ؟
ومن ثم يعطي بذلك لمن يفعل أي جريمة المبرر الذي يتبرأ
به من مسؤوليته الخلقية ...
وكان المسرحية - يشاركها في ذلك كثير من مسرحيات
وروايات التراجيديا الغربية قديما وحديثا - تريد أن تقول
للإنسان انه عندما يبدو أمامك طريقان للاختيار ، فأنت حينما
تختار أحدهما فإن أيا ما اخترت فإنه يؤدي بك الى مأساة
وان ما يبدو لك اختيارا حرا ، إنما هو جبر مقدر عليك»
مجلة المسلم المعاصر عدد 33 ص 13 سنة 1983 .

عادة مطامح أخرى . والبلاغ الحالك الذي ينحدر اليها عبر الملاحم والاساطير عن العصور الاولى للمجتمع الانساني يرينا ما لا تطيب له النفس من مطلق سلطان الاب ومن قساوته في مزاولة هذا السلطان . فكرونوس قد اتهم أبناءه مثلما يفعل الخنزير الوحشي بخلف انثاء . وجاء زوس فأخصى أباه ، ونصب نفسه سيدا في مكانه ، وكلمها خلا سلطان الاب في العائلة من كل قيد ، وجد الابن نفسه بالضرورة - وهو الوريث المنتظر - في موقف العدو من ابيه ... واما البنت وامها فتتشأ فرص النزاع بينهما حين تشب البنت فتى في امها رقبيا عليها ، على حين تطمح هي الى الحرية الجنسية هذا بينا ترى الام من ناحيتها في تفتح ابنتها نذيرا ينذرهما ان قد حان وقت النزول عن مطالبها الجنسية» (15) .

ويعقب بقوله : «ان هذا الفرض يتأيد تاييدا لا يتطرق اليه ادنى شك بالنسبة الى العصاةيين الذين ياخذون في التحليل النفسي . فنحن نعلم عندئذ ان رغبات الطفل الجنسية - اذا كانت هذه الرغبات تستحق هذا الوصف وهي لا تزال في طورها الجنيني - تتشأ منذ وقت مبكر ، وان اول نزوع الفتاة يكون لابيها كما تتجه رغائب الولد اول ما تتجه الى امه ، وبذلك يصبح الاب للولد مثل الام للبنت - مزاحما مزعجا » (16) .

- 15 : تفسير الاحلام ص 272 - 273 .

- 16 : تفسير الاحلام ص 273 - 274 .

وفرويد قد استند في تثبيت هذه النتيجة الأخيرة من خلال أمرين اثنين : أولهما : تحليل أحلام طفلية نمطية محتواها موت الأقرباء المحبوبين . «إذا رأى طفل ما يدعوهُ إلى أن يتجنّب غيباب شخص آخر فليس ما يمنعه من أن يلبس أميته هذه لبوس الرغبة في الموت» (17).

ثانيهما : الاتكاء على تجاربه مع العصاةين ولو على حساب منهجه التحليلي - كما سيأتي الحديث عن ذلك فيما بعد - يقول : «وتشهد خبرتي - وهي خبرة بلغت مدى واسعا - بأن الوالدين يقومان بالدور الرئيسي في الحياة النفسية الطفالية لئلا من صار في مستأنف حياته عصابيا . فمحببة أحد الوالدين وكراهية الآخر من المقومات الجوهرية في خزانة الاندفاعات النفسية التي تتكون في ذلك الوقت والتي تملك أكبر الأهمية في تشكيل أعراض العصاب الذي يجيء بعد ذلك» (18) .

تأسيسا على ما سبق يقرر فرويد رأيه في المرأة على هذا المنوال :
1 - أن الرغبات الجنسية تعتبر أساسا للرغبات الأولية وقوة محرّكة للشعور ، بل «أن الرغبات الجنسية تشارك مباشرة في خلق القيم العليا الثقافية والفنية والأخلاقية والجمالية والاجتماعية للنفس البشرية» (19) . ومن ثم فطاقة الجنسية هي المحرك

- 17 : تفسير الأحلام ، ص 271

- 18 : تفسير الأحلام ص 276 .

- 19 : مذهب التحليل النفسي ص 43 .

الاساسي في الانسان (20).

2 - اعتبر فرويد ان اليبيدو (الرغبة الجنسية) «ذو جوهر ذكوري» (21) بمعنى أن المرأة لا تملك أعضاء الجنس الحقيقية ، وهي بذلك تتمنى في اللاشعور ان تصبح رجلا . «ان كون البنت تدرك حقيقة أنها لا تملك قضيبا لا يعني أنها تتقبل فقدانه تقبلا هينا ، على العكس ، انها تتعلق لمدة طويلة بالرغبة في أن تملك شيئا مثله ، وتعتقد بإمكان ذلك عدة سنوات ، وحتى عندما تكون معرفتها بالواقع قد قادتها منذ زمن الى أن تهجر هذا الامل وتعتبره مستحيلا نجد ان التحليل يبرهن ان هذه الرغبة لا تزال قائمة في

20 - في هذا الصدد تجدر الإشارة الى أنه تفرعت بعض الاتجاهات عن نظرية فرويد كمدرسة يونغ في السيكلوجيا التحليلية ، واتجاه ادلر في السيكلوجيا الفردية ، ومذهب ويلهلم رايش في السيكلوجيا الاقتصادية - الجنسية . كما حاول اخرون (الفرويديون الجدد) اعادة النظر في الافكار الرئيسية لنظرية التحليل النفسي وتجديدها عبر تفسير عوامل الوظائف النفسية الداخلية للشخصية وكشف الجوانب الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية في حياة المجتمع .

ولعل جاك لاكان أبرز المعاصرين الذين حاولوا اعطاء نفس جديد لنظرية فرويد بقراءتها من منظور التحليل اللساني البنيوي .

21 - حسب تعبير جوزيت زوين في مقال «المرأة في ضوء نظريات التحليل النفسي» ترجمة الدكتور فؤاد شاهين ، مجلة الفكر العربي عدد 17-18 ص 48 سنة 1980 .

العقل الباطن محتفظة بقدر حسن من الطاقة (22) . تلك الرغبة الكامنة في العقل الباطن هي التي تأسر - في زعمه - نظرة الام الخاصة الى ابنها الطفل ، حيث «ان الام تستطيع ان تنقل الى ابنها الامل الذي كان عليها ان تكبته هي في نفسها ، وان في استطاعتها ايضا ان ترجو ان تحصل منه على الارضاء لما تبقى لها من عقدها الذكرية» (23) .

ونتيجة ذلك ان المرأة تختزل كل ماهي سلبي ، ولا تساهم في قيام الحضارة الانسانية بشيء .

3 - وانطلاقا من تلك الرؤى فالمرأة - في نظر فرويد - لا ترى نفسها الا من خلال الرجل ، بمعنى انها لا تملك استقلالاً ذاتياً في تقييم وضعيتها النفسية والجنسية والاجتماعية .

4 - وأخيرا يقرر ان البنية النفسية للمرأة بنية معقدة بحكم طبيعتها الانثوية . «ان اكتشاف الانثاة لعقدة الخشاء فيها نقطة تحول هامة في حياتها ، وانما ينشعب منها ثلاثة مجار من التطور : اولها يعود الى الكبح الجنسي او العصاب Neurosis ، وثانيها يقود الى تعديل الخلق باتجاه العقدة الذكرية Masculinity Complex ، وثالثها يقود الى الانوثة السوية» (24) .

- 22 : سيكولوجية النساء ص 34 ، تأليف سيجمونة فرويد ، السلسلة السيكولوجية 17 ، دار العلم للملايين .

- 23 : نفس المرجع السابق ص 46 .

- 24 : نفس المرجع السابق ص 35 .

وهكذا يطوق المرأة بهذه المراحل التطورية ، بل يجعلها خصائص ثابتة في حياتها النفسية .

وبعد أن قدم فرويد نظريته حول المرأة - والتي حاولت نكتيفها في النقاط الاربع السابقة - عاد ليقول في بساطة البريء : «هذا ما أردت أن أقوله في سيكولوجية النساء. وأنا اسلم بأنه ناقص الى حد بعيد ، وأنه يبدو في بعض الاحيان بعيدا جدا عن المديح» (25) .

وقبل الذهاب بعيدا في تحليل هذه المعطيات الفرويدية أرى ازاما تحديد الاوليات النظرية ومناقشتها من خلال تلك النصوص التي سقتها مع الاعتماد في تحليلها على ما ذكره فرويد نفسه عن حياته الشخصية ، وما لقيه من صعوبات في نسج بحثه ، وما بدر منه من زلات تكشف جوانب هامة من الدوافع النفسية وراء طرحه النظري .

1 - انطلق فرويد من فرضية مفادها أن اللاشعور هو النواة المركزية في الحياة النفسية ، وأنه مشحون بالرغبات الموروثة بيولوجيا ، وأنه الموجه الاساسي لكل نشاط بشري ، فهو «الواقع النفسي الحقيقي» ، وهو في طبيعته مجهول منا نجهله قدر جهلنا بحقيقة العالم الخارجي كما أنه لا يمثل لنا بوساطة معطيات الشعور الا مثولا ناقصا على نحو ما يمثل العالم الخارجي بوساطة رسائل

- 25 : نفس المرجع السابق ص 46 .

أعضائنا الحسية» (26).

تلك الرغبات الجنسية التي تكون اللاشعور والتي يمثلها
الهو في الجهاز البنيوي النفسي - تسير بتلقائية وعشوائية هادفة
الحصول على اللذة القصوى ، ومن ثم «جعل (فرويد) اللامعقول
يسكن عالم اللاشعور ، وأعطى اللاشعور سلطة قيادية على الشعور ،
وبذلك جعل الإنسان خاضعا لقانون حتمي يفرضه عليه جذره
اللاشعوري الذي يؤلف أساس تاريخه النوعي والفردى» (27) .

أن هذه النظرة الوظيفية البنيوية للشخصية الانسانية - كما
يحددها فرويد - تعصف بالاستقرار النفسي للإنسان ، وترمي به
على مدى حياته في مهب الصراع بين المنظومتين النفسيتين -
الشعورية واللاشعورية ، وتكرس في ذاته الصراع الروحي الذي
يذوق منه الأمرين .

ويعود فرويد بعد كل ما قرره فيما يخص اللاشعور ليقول :
«وإلى السؤال : هل ينبغي أن نضيف إلى الرغبات اللاشعورية
صفة الواقع ؟ فهذا ما لا أستطيع أن أقطع فيه بحرف» (28) ومن
ثم «يبقى مثله في ذلك مثل غالبية الفلاسفة عاجزا عن أن يقول
مامو اللاشعور . أن هذا وحده يذبح المرء إلى الشك بعلمية مذهب

- 26 : تفسير الأحلام ، ص 595 .

- 27 : مطاع صفدي في مقال «اللاشعور بين الاجراء والسلوك»

مجلة الفكر العربي المعاصر ، عدد 23 ص 12 سنة 1983 .

- 28 : تفسير الأحلام ص 601 .

التحليل النفسي الفرويدي ككل» (29) .

— اعتبر فرويد أن الحلم مظهر من مظاهر المادة المقموعة الكامنة في اللاشعور (30) . وبني فرضية أخرى تفيد أن الحلم في جميع الحالات «تحقيق رغبة» لأنه ناتج عن النظام اللاشعوري الذي لا يعرف نشاطه هدفا آخر غير تحقيق الرغبة والذي لا يملك قوى أخرى سوى الاندفاعات الرغبية» (31) .

ويحق لنا أن نتساءل (32) : إذا كان فرويد قد اعتمد على الأحلام باعتبارها مظهرا من مظاهر المادة المقموعة في الكيان الانساني لتفسير النزوع الجنسي نحو الام والشعور بالبغضاء والدمار نحو الاب . فما هو المقياس العلمي الذي يجعلنا نرتاح الى تفسيرات فرويد للأحلام بطريقته الخاصة دون أن نسم عمله بالتعسف ؟ خاصة وقد صرح بنفسه غير ما مرة بعجزه وقصوره عن الاتيان بتفسير كامل للحلم يقول : «ولقد سنحت لي الإشارة من قبل الى كوننا لا نستطيع أن نشتق أبدا من أن هذا الحلم أو ذاك قد فسر تفسيراً كاملاً ، فاحتمال أن يكون للحلم معنى آخر غير الذي كشف

— 29 : مذهب التحليل النفسي ص 37 — 38

— 30 : راجع تفسير الأحلام ص 591 .

— 31 : تفسير الأحلام ص 557 .

— 32 : يقصد من تغيير مستوى الخطاب من أنا الى نحن اشراك القارئ في طرح تساؤلات نقدية وتتبع مداها المعرفي والمنهجي

احتمال يظل قائماً دائماً حتى ولو بدا الحل دقنعا لا خلال فيه» (33).
ويستطرد قائلاً في جهة أخرى : «ولكننا ما أن نبتغي التعمق
في العمليات النفسية التي يتضمنها فعل الحلم حتى تساهمنا كل
الطرق الى الظلمة . فما لنا من قوة على تعليل الاحلام من حيث
هي عملية سيكولوجية ، لان تعليلك شيئاً يعني رده الى معلوم
سابق ، ولأننا في الوقت الحاضر نملك معرفة سيكولوجية موطدة
نستطيع ان ندرج تحتها ما نعلم بالفحص السيكولوجي للاحلام انه
أساس تعليلها » (34) .

واذا اعترف فرويد نفسه انه لا يستطيع التدليل على احقية
هذا التفسير او ذاك لحلم معين ، فكيف يدّعوننا فكرنا في ان ننق
بالمجموعة الكبيرة من الاحلام التي فسرنا حسب هواه ليخلص في
الاخير الى ان الحلم - اي حلم - هو تحقيق رغبة هذه الرغبة التي
تنشأ في كل حالة من اللاشعور «وهو فرض اسلم انا نفسي طواعية
باننا لا نستطيع البرهنة على صحته الشاملة وان لم نستطع
نقضه كذلك» (35) ؟

3 - اعتمد فرويد في طرحه الاسطورة حقيقة نفسية من خلالها
استخرج الخطوط العريضة لمنظوره السيكولوجي ، وفي توجهه هذا

-
- 33 : تفسير الاحلام ص 292 .
 - 34 : تفسير الاحلام ص 506 .
 - 35 : تفسير الاحلام ص 583 .

الى الاستعارات الميثولوجية دليل على بعده عن الخطاب العلمي (36).

ويحق لنا أن نتساءل : كيف يحدث أن تكون الاسطورة تعكس

حقيقة نفسية في النوع الانساني كله ؟

وبأي برهنة نستطيع التسليم بذلك ؟

وماهي الادوات المنهجية المستعملة في تلك البرهنة ؟

ثم بأي حق وبأيّة مشروعية بنى فرويد تلك الاحكام الخطيرة

انطلاقا من الاساطير ؟

وأخيرا، ان كانت الاساطير - حقا - تعكس واقعا نفسيا في

النوع الانساني كله ، فلماذا اختلفت وتختلف اساطير هذا الشعب

عن ذاك ؟

وما هي الحدود المشتركة بين الالم في اختلاف الاساطير طالما

انها تعبر عن واقع نفسي واحد ؟

4 - اتكا فرويد على النظرية العصابية من خلال تفسير احلام

العصابيين ، في حين يعترف قائلا : «واما احلام العصابيين فلا

يسعنا دائما - او على الاقل لا يسعنا كثيرا - أن نهضي في

تحليلها الى غاية معناها الخبيء ، فهناك قوة خاصة - قوة كان

لها نصيبها في تكوين العصاب أصلا وتتحرك الى العمل حين نتعرض

لحله - تحول دون تفسير الحلم حتى لفزه الاخير» (37)

- 36 : راجع مذهب التحليل النفسي ص 43 - 44 .

- 37 : تفسير الاحلام ، ص 288 .

5 - ورغم تصريحه بذلك العجز فقد سار تحت ضغط فكرة
بالية مبنية على سيكولوجية الأعصاب مما جعله يخرج عن المنهج
الذي حدده لبحثه من قبل ، فقد شعر بذلك فقال «فقد جئت الى
موضوع الحلم مقاداً بأعمالي السابقة في ميدان سيكولوجية الأعصاب
التي أردت الا أتخذ منها أساساً أجمع اليه في الكتاب الحاضر ، ومع
هذا اراني مساقاً الى ذلك في نال خطوة أخطوها بدل المضي في
الاتجاه المخالف ، متخذاً من الحلم وسيلة الى الاقتراب من
سيكولوجية الأعصاب كما كانت هسيثتي ؟ واني لأعلم كل الاضطراب
الذي يجره ذلك على القارئ ، ولكني لا أعرف وسيلة الى تجنبه»
(38).

6 - ان سبب الامراض المصابية يكمن في النزوع الجنسي
نحو الام والشعور بالأبغضاء نحو الاب كما يقرر فرويد ، ولكن
ما الرائع من ان يكون الناس كلهم عصاة حين اذا كان ذلك النزوع
طبيعياً في الانسان ؟

7 - اذا كان الفتى - في نذر فرويد - يعاني من عقدة أوديب،
فهل خلا التكوين النفسي للايتام من تلك العقد باعتبار ان الفتى
لم يصادف في حياته أباً يصارعه ولا أما ينزع نحوها - وكذلك
الشان بالنسبة للفتاة - ؟.

8 - ان أوديب وهو يفتأ عينيه ويهجر وطنه تحت فعالية

فأما التعبير الذي ارتسم على ملامح أمي في الحلم ، فينقل
مراى جدي اذ شهدته قبل موته بأيام قلائل وهو يشخر في غيبوبته .
وعلى ذلك وجب أن تذهب المراجعة الثانوية في تفسيرها الذي
تقوم به في الحلم الى أن الام قد ماتت ، ويلائم ذلك الحفر الجنائزي
كذلك . واستيقظت في هيلة لم تنقطع حتى أيقظت والدي ،،، واذكر
اني هدأت نجاة حين رأيت وجه أمي كأنما كانت بي حاجة الى ما
يطمئنني انها لم تمت ، سوى أن هذا التفسير الثانوي انما أتى
تحت تأثير هيلة قد أخذت من قبل في التمخض . فأنا لم استشعر
الهيلة لان أمي قد ماتت ، بل فسرت الحلم هذا التفسير في مراجعتي
الثانوية اياه ، لانني كنت فعلا تحت تأثير الهيلة . فان حسبنا
للكتب حسابه أمكن تأثر الهيلة الى رغبة مبهمه ، جنسية في غير
خفاء ، وجدت في المحتوى البصري للحلم ما يعرب عنها اعرابا
موفقا، (46) .

أفلا يمكن أن تكون (عقدة أوديب) من جملة تلك الدوافع في
نفسية فرويد ؟
ثم أفلا يكون قد انطلق من نفسه - وهو يعاني ما يعاني - ليعمم
الحكم على باقي الانسام ؟

46 - تفسير الاحلام ص 570 - 571 .
ان هذا السرد للحلم وتفسيره يعطي للقارئ فرصة الاطلاع
على الكيفية التي يؤول بها فرويد الاحلام .

والتحقير الذي يلقاه اليهود وهو منهم ، وازاء التهم التي تكال لهم بالشمال واليمين . فكيف «انتقم» لاشعوره من كل ذلك في صورة بريئة المظهر .. لا اعتراض لاحد عليها من اولئك «الجنة المعتدين» من المسيحيين ؟

انه ينتقم لنفسه ولل يهود جميعا بان يقول : ايها الناس الذين تتهموننا باننا نعيش على غرائزنا لا نعرف الا صوالحنا الخاصة ، ولا نقيم وزنا لقيمة عليا او ميزان خلقي ، انظروا الى انفسكم ! انظروا الى دخائل شعوركم ... انكم كلكم كاليهود ! كلكم ماديون تعيشون على الغرائز ! كلكم لا ضمير لكم ، ولا اخلاق ، ولا مثل عليا ، ولا قيم معنوية ! كلكم تنطبق عليكم الصورة البشعة الشائنة التي تصفونها باليهود ؟ فلماذا تخصونهم بها ، وهي صورة الانسانية عامة في القديم والحديث ؟

وهكذا يرفع فرويد - في اللاشعور - لعنة الاجيال التي انصبت على اليهود وحدهم، ويدنتم لهم بأن يصب اللعنة على الجميع ! (48) وما تجدر اليه الاشارة انه اشير الى فرويد في كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» كما يلي : «يجب أن نعمل لتتهار الاخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا . ان فرويد منا ، وسيظل يعرض

- 48 : الانسان بين المادية والاسلام ص 28 - 29 ، تأليف محمد قطب الطبعة الخامسة دار الشروق 1978 .

العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب
شيء مقدس ، ويصبح همه الأكبر ارواء غرائزه الجنسية ، وعندئذ
تنهار أخلاقه» (49) .

- 49 : الاسلام والجنس ، ص 19 ، تأليف فتحي يكن
الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة 1975 .

وقع النظرية الفرويدية على المرأة الغربية

ان العرض المتقدم من شأنه أن يضعنا أمام الدوافع الحقيقية الكامنة وراء الأطرح الفرويدي ويدفعنا الى تقصي ابعاده في الواقع الاجتماعي الذي يعكس - حقيقة - المدى البعيد للنظرية الفرويدية.

يمكن حصر تلك الابعاد فيما يلي :

- 1 - رفض المرأة الانتماء الى الجنس النسوي .
 - 2 - شعور المرأة بالانقص ، وفقدانها لكيان نفسي متميز .
 - 3 - شعور المرأة بانها اضعف من الرجل واحط قدرا منه باعتبار طبيعتها .
 - 4 - اعتقاد المرأة بأن مصدر القوة والكمال هو الرجل مما جعلها على السير في ركبه .
 - 5 - دخولها في صراع مع الرجل باعتبارها المسخر الاول لها ، والمستفيد منها والهاضم لحقوقها .
- ويأخص P. Daco نظرة المرأة الغربية على هذا النحو :
- «نحن (معشر النساء) ضعيفات ، لا نملك استقلالنا . انه لمن المستحيل أن نساوي الرجل ، اننا لا نقدر على شيء مادامت هذه طبيعتنا ، الرجال وحدهم المؤهلون لامتلاك القوة والعظمة ، نحن كائنات بتراء ، مخصيات ، رجال ناقصون ...» (50) .

Comprendre les femmes et leur psychologie : 50 -
profonde . p. 53 Pierre Daco marabout.

ومن هذا المنطلق تكونت في المجتمع الاوروبي حركة تحرير المرأة (M L F) «التي اتخذت طابعا تحاكي به موقف الرجل كما لو كان هدف الانوثة في مطابقته السلبية أن تتحرر من هذه السلبية لكي تحاكي الرجل في فعاليته» (51) .

على أن هذا لا ينفي وجود حركات عديدة لتحرير النساء اتجهت وجهة مضادة للرجل ، بل اعتبرته العدو الاول في حياتها .

وعلى هذه الاسس سارت المرأة الغربية في سلوكها الاجتماعي وتصورها الحياتي ، فكانت بذلك أشقى الكائنات على الارض : حيث فقدت توازنها الداخلي ، وحيث ترسخ مركب النقص في بنائها النفسي ، وحيث انجرفت في دنيا الرجال ، وحيث سقطت ضحية الخداع الفكري والاجتماعي والحضاري .

ان هذه النماذج الحية التي اسوقها تدل بما فيه الكفاية على التمزق النفسي الذي تعانيه المرأة الغربية ، خاصة اذا علمنا ان الجانب النفسي اساس جوهري في الهوية الانسانية : اذ من فقد التوازن النفسي فقد كل الحياة وتبقى - بعد ذلك - كل وسائل الحياة عاجزة عن تعويض الشعور بالحياة .

النموذج الاول : «انني اعيش على هامش الحياة ، لانني امرأة ، في حين وددت ان لو اكون رجلا» (52) .

- 51 : الدكتور عدنان حب الله في مقال الانوثة بين الرجل والمرأة ، ص 86 ، مجلة الفكر العربي المصغر .

Comprendre les femmes - p. 72

- 52 :

النموذج الثاني : « لكم أشعر بأعظم الصعوبات في أن أكون امرأة . ذلك لأنني أجهل ما معنى «كوني امرأة» . لم يسبق لي أن علمت بذلك ، بل على العكس لا أسمع إلا أن المرأة «ماهي الا...»، وارفئ ان اعيش تحت هذه المقاييس السلبية» (53) .

النموذج الثالث : «احس أنني محاصرة ، سجيننة ذاتي ... أكره أن أكون امرأة ، لو لم تكن الدورات الشهرية لقبلت أن أكونها» . (54)

النموذج الرابع : «أرفض أن أكون ضحية كامى ، لذلك أتحسر على وضعي كأمراة ، وسأتحول الى رجل» (55) .
ان لسان المرأة العربية يقول في غير همس :

ويلاه من وجودي !

ويلاه من جنسي !

ويلاه من حياتي !

ما أرب هذا الضنك وهذا الخوف وهذا اليأس وهذا القلق !

ما أشقاني بنفسي !

وما أشقى الناس بي !

ما أقسى هذي الحياة !

Comprendre les femmes . p. 72 : 53 -

Les triomphes de la psychanalyse du : 54 -

traitement psychologique à l'équilibre
de la personnalité .p. 329. Pierre Daco . marabout.

Comprendre les femmes .p. 40. : 55 -

ان الحضارة الغربية - وقد وصلت ذروتها في ايجاد وسائل الراحة والمتعة لذئ الانسان - لم تستطع ارضاء الجانب النفسي في الانسان عموما والمرأة بوجه خاص : اذ اعتبرتة مجرد متعة يتلهى بها الرجل حتى شاء وكيف شاء . فما عادت تملك طمأنينة البيت واستقراره ، ولا الزوج ومطالبها المعنوية منه ، بل ولا الشعور بالحياة ، فما معنى أن تملك - بعد ذلك - كل وسائل الحياة !

الى هذا امدى استطاعت النظرية الفرويدية - وهي وجه من وجوه الحضارة الغربية - أن تنفذ الى المجتمع الغربي ، بل الى المجتمع الانساني ككل باعتبار أن تصدير الفكر الغربي عملية واسعة الانتشار ومصاحبة في الوقت ذاته - كما يبدو الان واضحا - لعملية التصدير الاعلامي والتكنولوجي . ومن ثم يمكن الحديث عن أزمة المرأة العربية المعاصرة .

المرأة العربية المعاصرة ونتائج النظرية الفرويدية

ان هذا الحديث يستمد مشروعيته من الواقع الذي تعيش عليه المرأة العربية المعاصرة . هذا الحديث يحاول أن يستشف من خلال المظاهر المتازمة في سلوكيات المرأة العربية المعاصرة وفي تصورها وفي سيكولوجيتها وفي فكرها - الاليات التي تحرك البنية الخفية وتتحكم في توجيهها نحو الازمة . انه ليس من باب التقليد ان يطلق مصطلح الازمة على واقع المرأة العربية ، وليس من باب الاسقاط أن يبحث عن الاطار النظري الذي تتحرك فيه هذه الازمة . فعلى كل المستويات تعيش المرأة العربية المعاصرة على نتائج النظرية الفرويدية التي سبق طرحها ، وهذه نماذج توضح هذا المذهب :

- ما أحقر الرجال ! انهم ذئاب في ثياب البشر .
- أكره الرجال جميعا .
- الرجال أنانيون ومتعجرفون .
- ما أراء في الرجل هو أن الغرور يتكلمهم ، وأنهم ليسوا أهلا للثقة والتقدير والاحترام لانهم يحتقرون المرأة ويصفونها بالضعف .
- الرجال متهورون ، سيسقطون في قبضتنا . (56)

- 56 : لعل هذا التصريح مستمد لما قالته Simone de Beauvoir من أن المرأة تريد أن تجعل الرجل - الذي تحقد عليه

النسوية ويحافظ على تميزها وسلامة فطرتها . وهذا المظهر الخارجي يعكس تبعيتها الحضارية والنفسية والفكرية والاخلاقية ، ويكرس بذلك وضعيتها المتأزمة .

الى هذا المدى تستطيع اللغة التأثير في فكر الانسان وسلوكه ، ومن ثم في نفسيته (67) . والى هذا المدى استطاعت لغة المستعمر (68) استيلاء الشخصية النسوية على وجه الخصوص .

67 - : ان محاربة كمال أتاتورك للغة العربية (والليباس العربي) ينبع من القيمة التي تتخذها في تحديد شخصية الانسان وعقليته .

68 - : ان هذا لا يعني بحال صرف النظر عن تعلم اللغات الاجنبية باعتبارها لغة المستعمر ، بل بدونها لا يمكن أن تكتمل ثقافة الانسان ، إنما بعد إتقان اللغة العربية بوصفها من مكونات الشخصية العربية الاسلامية .

ان المرأة العربية المعاصرة لابد ان توقف هذه الرحى التي
تريد ان تسحق بداخلها كرامتها وأنوثلتها ووجودها ، وتسعى الى
ان تسليخ عن المرأة قداستها ، خاصة حين سارت في الركب مستلبة
الفكر والهوية ، مشدوهة بالحضارة الغربية التي أصبحت سجننا لها
من حيث تدعي أنها حرة ومتحضرة ، لكن كيف السبيل الى ذلك ؟

www.books4all.net
منتديات سور الأنيكية

